البحث الثاني

الشفاعة المأذون بها الواردة في كثير من آيات القرآن الكريم

إن القرآن الكريم وان كان قد نفى وجود الشفاعة في كثير من الآيات غلا أنه أثبت شفاعة مأذونا بها في آيات أخرى، ولذلك وجب أن نبين المراد من الشفاعة المأذون بها الواردة في تلك الآيات دفعا لما يتوهم من التناقض في آيات القرآن.

(الآية الأولى من آيات الشفاعة المأذون بها)

قوله تعالى في سورة يونس ٣ (يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تتذكرون).

أي يدبر أمر إرسال الرسل وأمر الدين والتشريع كما هو المراد من لفظ الأمر في كثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) أي يدبر الأمر الديني والتشريعي أي ينزل الدين والقران من السماء إلى الأرض ثم يرفعه كما هو وارد في الأحاديث أيضا من أن الله تعالى سوف يرف الدين والقرآن في آخر الزمان فيكون معنى آية (يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه) أي ما من وسيط في أمر الدين والتشريع وشفيع في أمر الهداية والإيمان بالله تعالى وما من داع إليه ومرسل للناس يتوسط بينهم وبين الله إلا من بعد إذنه له أي بإرساله إياه ليدعو الناس إليه. فالشفاعة بإذن الله هي الدعوة إليه بإذنه كما قال تعالى (وداعيا إلى الله بإذنه) فقوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وقوله (وداعيا إلى الله بإذنه) هما بمعنى واحد والمقصود منهما شيء واحد هو أن الشفاعة والدعوة والرسالة لا تكون إلا بإذن الله تعالى كما قال في آية أخرى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والقرآن يفسر بعضه بعضا.

ومما يدل على أن هذا هو المراد في هذه الآية قوله تعالى قبلها(أكان للناس عجبا أن أ،حينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا ’لى أن قال (يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه) فهذا يدل على أن المراد من تدبير الأمر ومن الشفاعة المأذون بها إنما هي وحي الله لنبيه بإنذار الناس وتبشيرهم ليكون بذلك شفيعا لهم.

وبالجملة فالآية تفيد أن الشفاعة تكون في الدنيا بتوسط الرسل في هداية الناس إلى الله والدعوة إليه، وإلى عبادته بدليل قوله في نفس الآية (ذلكم الله ربكم فاعبدون أفلا تتذكرون). إذ الأمر بعبادة الله إنما يكون في الدنيا كما أن التذكر أيضا إنما يفيد في الدنيا أيضا. فالشفاعة حينئذ هي أيضا في الدنيا بماهيتها وحقيقتها وهي في الآخر بأثرها وغايتها ونتيجتها. إذ لا فائدة ولا غاية من هذه الشفاعة والوساطة في الإيمان والعمل الصالح إلا دخول الجنة والتنعم فيها في الآخرة.

(الآية الثانية)

قوله تعالى في سورة البقرة (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) أي منذ الذي يمكنه أن يتوسط فيما بينه تعالى وبين الناس إلا بإذن الله تعالى له في هذا التوسط أي بإرساله إياه في هذه المهمة فالمعنى المراد من إذن الله تعالى لأحد الشفعاء هو إرساله أحد الأنبياء لدعوة الناس إليه فيكون الإذن بالشفاعة واقعا بالفعل بإرسال الرسل بالفعل

رأي الأستاذ الإمام

في آيات الإذن بالشفاعة وبيان ضعفه

إن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده قال: "أن آيات الإذن بالشفاعة لا تدل على أن الإذن واقع فعلا بل هو كقوله تعالى (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) فهو تمثيل لإنفراد الله بالسلطان والملك في ذلك اليوم وعدم جراءة أحد من عبيده على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه، وإذنه غير معروف لأحد من خلقة" انتهى.

ولكني أقول أن كلام الأستاذ هنا بعيد لأن الإذن بالشفاعة لو لم يكن واقعا بالفعل لما كان هناك لزوم لاستثناءه من عدم وجود الشفاعة مطلقا حيث قال(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) إذ الاستثناء بمقتضى أن يكون حكم المستثنى غير حكم المستثنى منه في النفي والإثبات.

وعليه فتفسير الإذن بأمر واقع فعلا ولو في الدنيا أولى من تفسره بأمر غير واقع مطلقا لا في الدنيا ولا في الآخرة كما يقول الأستاذ الأمام .

والدليل على أن المراد من الشفاعة في هذه الآية هي الشفاعة والوساطة في الدنيا بالإيمان والهادية والدخول في دين الله تعالى بلا إكراه قوله تعالى بعدها (لا إكراه في الدين) أيبل وساطة وشفاعة فقط لا إكراه وبدليل نفيه تعالى الشفاعة مطلقا يوم القيامة قبل هذه الآية في قوله (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولاخلة ولا شفاعة) فنفيها نفيا باتا مطلقا يوم القيامة في أول الآيات ثم إتيانها في آخرها بإذنه فيما يتعلق بالدخول في الدين وعدم الإكراه فيه الذي لا يكون إلا في الدنيا دليل واضح على ما نقول من أن الشفاعة إنما هي في الدنيا بحقيقتها وإن كانت في الآخرة بثمرتها.

(الآية الثالثة)

قوله تعالى في سورة مريم ٨٨ (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا. لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا).

الضمير في قوله لا يملكون راجع إلى المجرمين. والعهد يحتمل إن يكون المراد منه النبوة والرسالة كما هو وارد بهذا المعنى في كثير من آيات الكتب المقدسة، والوفاء بهذا العهد إنما يكون في الدنيا بالتوسط للمجرمين في الإيمان بالله تعالى وفي هدايتهم وإرشادهم إلى العمل الصالح وفي تركهم للإجرام والسيئات ليدخلوا بذلك الجنة في الآخرة فالرسل هم الشفعاء والوسطاء للناس لدخولهم الجنة بإيمانهم الذي هدوهم إليه وأعمالهم التي أرشدوهم إليها.

ويحتمل أن يكون المراد من اتخاذ العهد هو الإيمان بالله تعالى وتوحيده والعمل الصالح كما هو صريح ما رواه أن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه ذات يوم (أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا، قالوا وكيف ذلك، قال أن يقول كل صباح ومساء "اللهم فاطر السموات والأرض وعالم الغيب والشهادة إني أعهد إلك أني أهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمد عبدك ورسولك فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتبعدني عن الخير وأني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عهدا توفنيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد" فإذا كان يوم القيامة نادى منادي أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة). فهذا الحديث صريح في أن توحيد الله تعالى والإيمان به وبرسله والعمل الصالح هو العهد الذي يشفع للمجرمين يوم القيامة فيكون معنى هذه الآية حينئذ أن المجرمين لا يملكون الشفاعة لأنفسهم في دخولهم الجنة إلا من كان منهم قد اتخذ عند الله عهدا بإيمانه وتوحيده وأعماله الصالحة في الدنيا فهؤلاء تشفع لهم أعمالهم فيدخلونها بمقتضى قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات)وعلى كل فالشفيع للإنسان المفهوم من هذه الآية إما أن يكون هو إيمانه وعمله الصالح في الدنيا وإما أن يكون هو الرسول المأذون له في الدنيا بالتوسط للناس في الإيمان والهداية والعمل الصالح. وهذان المعنيان هما المعقولان الموافقان لجميع الكتب السماوية وعلى كل الحالين فهذه الشفاعة إنما تكون في الدنيا بماهيتها وحقيقتها وتكون في الآخرة بأثرها وغايتها ونتيجتها. وهذا ما نحاول إثباته من أنها موجودة في الدنيا والآخرة معا لا في الآخرة فقط كما يفهمه الجمهور.

(الآية الرابعة)

قوله تعالى في سورة طه ١٠٩ (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من إذن له الرحمن ورضي له قولا) معنى يومئذ أي يوم إجابة الداعي إلى الله تعالى وهو الرسول ويوم إتباعه في دعوته بدليل قوله قبلها (يومئذ يتبعون الداعي) أي الرسول الذي يدعو إلى الله تعالى

وإتباع الرسول في دعوته إنما تكون في الدنيا وشفاعته يومئذ تكون وتحقق باستجابة دعوته وإتباعه في تعاليمه وإرشاداته ولفظ (من) من قوله (إلا من إذن له) يحتمل أن تكون في محل رفع على أنها بدل من الشفاعة بتقدير مضاعف أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة ووساطة من أذن له الرحمن ورضي قوله في إرشاد الناس ووعظهم وهدايتهم وهم الرسل كما قدمنا.

ويحتمل أن تكون في محل نصب على أنها مفعول (تنفع) أي لا تنفع الشفاعة والوساطة أحد إلا الذين أذن لهم الرحمن بأن يهتدوا ويعملوا صالحا والذين قد رضي الله لهم قولهم وهذا الاحتمال هو الأصح الموافق لمعنى قوله تعالى(لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) فالشفيع للإنسان يوم القيامة هو قوله المرضي لله تعالى وعمله الصالح والمشفوع له هو الشخص المرضي لله تعالى الطائع له في الدنيا لا العاصي المذنب لأن هذا ليس مرضيا لله تعالى.

وعليه فلا يصح تفسير الشفعاء بالمعنى الشهور من أن بعض الناس كالأنبياء يشفعون يوم القيامة للعصاة في إسقاط ذنوبهم لأن الله تعالى لا يأذن في ذلك اليوم لأحج ما بالشفاعة لمن عصى أمره بل الشفاعة لا تكون إلا بقول من رضي قوله وبطاعته وعمله في الدنيا. فطاعته وعمله وقوله المرضي هو الشفيع له يوم القيامة.

(الآية الخامسة)

قوله تعالى في سورة سبأ ٢٣ (وماله منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له).

والكلام فيها هو كالكلام الذي تقدم في الآية قبلها.

(الآية السادسة)

قوله تعالى في سورة الأنبياء ٢٨(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون. وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون).

الضمير في قوله ولا يشفعون راجعة لعباد الله المكرمين الذين توهم الناس أن الله قد اتخذهم أولاد له الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. هؤلاء هم الرسل المفهومون من قوله في صدر الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه) وعليه فهذه الآية صريحة في أن الرسل إنما يشفعون ويتوسطون بهداية من ارتضاهم الله لتوحيده وعبادته في الدنيا بمقتضى صريح قوله في أول الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أن لا إله إلا أنا فاعبدون) إذ الإيحاء والعبادة إنما تكون في الدنيا فمن وحد الله تعالى وعبده في الدنيا بواسطة الرسل فهو المشفوع له من طرف هؤلاء الرسل وحينئذ فتكومن هذه الشفاعة من طرفا لرسل موجودة ومتحققة في الدنيا بتوسطهم في إيمان الناس وتوحيدهم وبتسببهم في أعمالهم الصالحة فا أنهم يشفعون يوم القيامة للعصاة المذنبين في إسقاط ذنوبهم وللمخطئين في عدم مجازاتهم على خطأهم لأن المخطئ المذنب العاصي لله تعالى لا يكون مرضيا عنده ولا يكون ممن خشي الله تعالى وحينئذ فالشفاعة بالمعنى المشهور الذي يفهمه الناس من أنها للعصاة المذنبين لأجل إسقاط ذنوبهم يوم القيامة لا وجود ولا تحقق لها يوم القيامة أصلا.

(الآية السابعة)

قوله تعالى في سورة الزخرف ٨٦ (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) فإنها تفيد أن ما دون الله لا يملك الشفاعة إلا من شهدوا بالحق وهم يعلمون أنه الحق وذلك كالأنبياء والمرسلين الذين شهدوا للناس بالحق وبوحدانية الله تعالى ووجوب الإيمان به ودعوهم إلى ذلك وهم يعلمون أن ذلك حق وصدق. وهذه الشفاعة تكون في الدنيا بتوسط الأنبياء وشهادتهم للناس بالحق ودعوتهم إليه.

(الآية الثامنة)

قوله تعالى في سورة النجم ٢٦ (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) أي لمن يشاءهم ويرضاهم من الملائكة الشافعين أو من البشر المشفوع لهم. والمعنى أن كثيرا من الملائكة لا تغني شفاعتهم ووساطتهم للبشر شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من هؤلاء الملائكة أن يشفعوا أو لمن يشاء من البشر أن يشفع لهم وعلى كل فالمراد من شفاعة الملائكة كجبريل هي وساطتهم في تبليغ الشرائع للبشر من الله تعالى.

والدليل على أن المراد من هذه الشفاعة في هذه الآية هي الوساطة في الدنيا بتبليغ الشريعة للناس وهدايتهم إلى الله تعالى هو كون جميع الآيات التي قبل هذه الآية واردة في خصوص هذه المعنى. وبيان أن محمدا وجبريل عليهما السلام هم من الرسل والوسطاء والشفعاء وأرباب الوحي حيث قال تعالى في أول السورة (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى) ثم قال بعدها (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلخ..) ثم قال بعدها (وكم من ملك في السموات لا يغني شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) فأنت ترى أن جميع آيات السورة من أولها إلى هذه الآية واردة في معنى إثبات وحي محمد ورسالتهم ووساطة جبريل بين الله وخلقه. ووساطتهما في ذلك إنما هي في الدنيا. وحينئذ فالملك المأذون له بالشفاعة في هذه الآية هو جبريل وشفاعته هي وساطة في تبليغ الشرائع وتعليم الأنبياء في الدنيا حسب مفاد الآيات التي قبل هذه الآية. والقرآن يفسر بعضه بعضا. وترى أيضا أن هذه الآية تندد على من اتخذ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وسطاء وشفعاء لهم، وأنهم يقربونهم إلى الله زلفى. والسورة كلها في مقام بيان من أذن لهم بالشفاعة والوساطة كمحمد وجبريل عليهما السلام وبينا من لم يأذن لهم في ذلك كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فالمؤذنون من طرف الله تعالى هم الشفعاء والوسطاء الحقيقيون والمقبولون عنده. وأما الذين لم يأذن لهم الله بل اتخذهم الناس من عند أنفسهم وسطاء وشفعاء لهم عنده تعالى فهؤلاء يعتبرهم الله شركاء ويعتبر متخذيهم مشركين.

وبيان ذلك أنك لو اعتبرت زيدا مثلا متدخلا في شؤون عمرو فقد جعلته شريكا لعمرو وهو ليس بشريك له وصرت أنت مشركا ليزيد مع عمرو ولكن إذا أذن عمرو ليزيد في ذلك فلا يكون زيدا شريكا له بل يكون مأذونا من قبله ونائبا عنه يعمل باسمه وعلى حسابه.

وحينئذ فالذين جعلوا من عند أنفسهم شفعاء لهم عند الله تعالى فقد جعلوهم شركاء لهم وكانوا هم أيضا مشركين معه هؤلاء الشفعاء لأنهم أدخلوهم في شؤونه تعالى وهو لم يأذن لهم بهذا الدخول.

وأما من أذن لهم بالدخول بأن أرسلهم هو وسطهم بينه وبين خلقة فهؤلاء لا يكونون شركاء له بل مأذونين من طرفه ولا يكون من آمن بهم واتبعهم، واعتبرهم وسطاء وشفعاء مشركين لهم مع الله تعالى بل يكونون موحدين له لأن هؤلاء الرسل المأذونين بالوساطة والشفاعة إنما يتكلمون ويهدون النسا باسمه تعالى وعلى حسابه. قال تعالى (وما ينطق علن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) وقال أيضا (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ومن هذا البيان تعلم الفرق بين المشركين والموحدين وتعلم أيضا أن هذه الآيات تدل على أن شفاعة الرسل والملائكة هي وساطتهم في الدنيا وأن هذه الشفاعة موجودة في الدنيا بحقيقتها وماهيتها وفي الآخرة بأثرها وغايتها ونتيجتها.

ومما يدل على أن الشفاعة تكون في الدنيا قوله تعالى في سورة النساء (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها ومن يشفع شفاعة عنه سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا). فإن هذه الآية تفيد أن تحريض النبي (ص) للمؤمنين على الجهاد في سبيل الله هي شفاعة لهم حسنة مما هو صريح في أن شفعة النبي للناس هي وساطته لهم في كونهم يعملون أعمالا صالحة في الدنيا كالجهاد وغيره مما يستحقون بها دخول الجنة في الآخرة، وصريح في أن ماهيتها الشفاعة وحقيقتها تكون في الدنيا وأن أثرها ونتيجتها تكون كما قلنا في الآخرة.

الخلاصـــــة

والخلاصة في ذلك هي أنه وجد في القرآن الكريم سبع عشرة آية مصرح فيها صراحة تامة بنفس الشفاعة مطلقا يوم القيامة وعدم نفعها وعدم قبولها في ذلك اليوم من أحد ما. ثم وجد فيه أيضا سبع آيات أخرى تفيد وجود شفاعة مأذون بها ولكنه لم يذكر

في واحدة منها أن هذه الشفاعة المأذون بها تكون يوم القيامة فإذا جعلنا الشفاعة المذكورة في الآيات الأولى كالشفاعة المذكورة في الآيات الثانية بمعنى واحد وفي زمن واحد وفي يوم القيامة كما يفهمه الناس، لزم على ذلك أن تتناقض الآيات السبع عشرة الأولى التي تصرح بنفس الشفاعة مطلقا في ذلك اليوم مع الآيات السبع التي تفيد وجود شفاعة مأذون بها لأنه لو قال قائل مثلا (لا يوجد في الدار أحد ما في هذا لا يوم) فإنه يفهم من قوله هذا أنه لا يوجد فيها واحد مطلقا لا مأذون له ولا غير مأذون له. فإذا قال بعد ذلك لا يوجد في الدار إلا واحد مأذون له ولم يعين يوما مخصوصا، فإذا حملنا ذلك على اليوم المذكورة في العبارة الأولى لزم عليه أن يتناقض عموم قوله الأول النافي لوجود واحد ما مطلقا في الدار مع قوله الثاني المثبت لوجود واحد مأذون له.

فلو كان مراده استثناء المأذون له في ذلك اليوم لكان اللائق به أن يقول من أول الأمر لا يوجد بالدار أحد إلا واحد مأذون له لا أنه ينفي أولا نفيا عاما باتا ثم بعد ذلك يثبت بعض ما قد نفاه أولا لأن ذلك يوجب التشويش والارتباك أو يدل على أنه كان جاهلا بحقيقة الحال ثم رجع إلى ما علمه فيما بعد أو يكون ذلك إغفالا وتضليلا للسامعين أو إيهاما وتشكيكا وإيقاعا لهم في الحيرة والتردد وهذا ما لا يليق شيء منه بكتاب الله الذي نزل مفصلا مبينا بنص قوله تعالى (كتاب فصلت آياته) وقوله (كتاب مبين).

خصوصا وأن ذلك ينافي الفصاحة والبلاغة التي بلغ القرآن الكريم أقصاها وتسنم أعلى درجاتها. وعليه فأين حينئذ هذا التفصيل والبيان وأين بلاغة وفصاحة القرآن إذا جعلناه ينفي الشيء نفيا عاما باتا أولا ثم يثبت بعضه ثانيا إذا فرضنا أن آيات النفي العام نزلت قبل آيات الإذن، أو أنه يثبت بعض الشيء ثم ينفي عموم ذلك الشيء إذا فرضنا أن آيات الإذن نزلت قبل آيات النفي العام، أو أنه ينفي الشيء ثم يثبته ثم ينفيه ثم يثبته وهكذا إذا فرضنا أن بعض آيات النفي نزلت أولا ثم بعض آيات الإذن ثم بعض آيات النفي ثم بعض آيات الإذن وهكذا مما يوجب التشويش والخبرة والتشكيك.

على أنه كيف يمكننا أن نتحقق بأن أحد هذه الفروض الثلاثة هو الذي حصل دون غيره.

وإذا قلنا أن آيات الإذن نسخت آيات النفي العام فمن أين يثبت لنا أن آيات الإذن كلها لم تنزل إلا بعد آيات النفي العام كلها حتى يمكن أن تكون ناسخة لها ولم لا يجوز العكس وتكون آيات النفي العام ناسخة لآيات الإذن أو لم لا يجوز أن يكون نزول بعض آيات الفريقين متعاقبا مع نزول البعض الآخر منها. وعليه فهل يليق بنا والحالة هذه أن نجعل القرآن ينسخ الشيء ثم يثبته ثم ينسخه ثم يثبته وهكذا. إن هذا كله مما لا يرضاه مسلم يعتقد بكمال فصاحة القرآن وتمام بلاغته.

على أن النسخ لا يمكن أن يتحقق في مثل هذه الآيات لأنها أخبار عن حصول شفاعة يوم القيامة أو عدم حصولها. والنسخ إنما يكون في الإنشاء دون الإخبار.

والحاصل أننا إذا جعلنا الشفاعة المنفية في الآيات الأولى والشفاعة المثبتة في الآيات الثانية بمعنى واحد وفي زمان واحد وهو يوم القيامة كما يفهم الناس فإنه يترتب عليه إشكالات كثيرة جدا قد قدمنا لك بعض منها ولكننا إذا جعلنا معناهما مختلفا بأن جعلنا الشفاعة المنفية نفي عاما هي الشفاعة بمعنى توسط أحد المخلوقين يوم القيامة بين الله وبين العصاة والمذنبين من خلقه في إسقاط ذنوبهم عنهم في ذلك اليوم التي بينا سابقا أنها غير مقبولة وغير نافعة وأنها لا تليق بالله تعالى ولا برسله الكرام بل تنافي العقل والمنطق والوجدان وجعلنا الشفاعة المأذون بها هي الوساطة في الدنيا بين الخلق والخالق في الإيمان بالله تعالى وتوحيده وهداية الخلق إليه وتقريبهم منه مما هو معقول ومقبول وموافق لجميع الكتب السماوية فإنه بذلك تنحل جميع الإشكالات المتقدمة وغيرها وتكون جميع الآيات القرآنية واضحة بينه لا إبهام فيها ولا تناقض في معانيها، ولا ارتباك في مبانيها.

خصوصا وأننا إذا بحثنا بحثا دقيقا في معنى آيات نفي الشفاعة وآيات الإذن فيها نجد أن الآيات الأولى المتضمنة للنفي نصرح فيها تمام التصريح بأن هذا النفي إنما هو يوم القيامة فقط كما هو صريح لفظ كل آية وردت في ذلك. كما أننا نجد أن الآيات الثانية المتضمنة للإذن مشعرة إشعارا ظاهرا إما بمنطوقها أو بمفهومها وأما بالآيات التي قبلها أو الآيات التي بعدها بأن هذا الإذن إنما هو في الدنيا فقط كما يظهر ذلك جليا من معنى كل آية وردت في ذلك كما أثبتناه سابقا مفصلا موضحا.

وحينئذ فما هو الذي يدعونا إلى ترك صريح القرآن والاعتماد على بعض الأفهام التي لا مستند لها. فالبحث والتوثيق خير من التقليد والتلفيق. على أننا كنا بينا فيما سبق أيضا أن الشفاعة المأذون بها للرسل عليهم السلام الحاصلة في الدنيا لا يظهر أثرها ولا تتحقق غاياتها ونتيجتها إلا في الآخرة فتكون حينئذ موجودة ومتحققة في الدنيا والآخرة معا أيضا لا في الآخرة فقط كما يفهم الناس. ويكون محمد صلى الله عليه وسلم هو أعظم الشفعاء لأنه أكثر هؤلاء الرسل إتباعا وأعظمهم هداية للناس، وأكبرهم وساطة في تقريب الخلق من الخالق جل وعلا فله الشفاعة العظمى والمقام الأسمى الذي لا ينبغي لأحد غيره.

ومما ذكر يعلم أن الشفاعة الحقيقة مخصوصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام لأنهم هم الذين يبلغون الشرائع عن ربهم ويتوسطون في هداية الخلق لخالقهم. وأما ما ورد في وجد شفاعة للعلماء والأولياء والصديقين والصالحين فإنما هي شفاعة تبعية لا أصيلة ذاتية لهم لأن م يشفع منهم ويتوسط في هداية أحد وإرشاده إلى الدين أو في الإقتداء بيه في عمله الصالح فإنما يتوسط باسم الرسول وعلى حسابه ويهدي إلى دينه وشريعته. فأصحاب الشرائع والأديان هم الرسل فقط دون غيرهم وغيرهم إنما هم تبع لهم فيها. فالرسل هم الشفعاء الحقيقيون وأما العلماء والأولياء والصلحاء وغيرهم ممن ورد أنهم يشفعون للناس فإنهم بالنظر لكونهم أتباعا لهؤلاء الرسل في الدين والشريعة فهم أتباع لهم أيضا في الوساطة والشفاعة إما بالوعظ والإرشاد ونشر العلم، وإما باقتداء الناس بهم في أعمالهم الصالحة كما ورد (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم).

هذا تفصيل ما كنت قد أجملته في بيان معنى الشفاعة التي سئلت عنها حينما كنت بديوان السيد إبراهيم العلمي وعليه فهل يجوز بعد ذلك لعلماء غزة أن ينسبوني إلى إنكار شفاعة الرسل الكرام وإلى جحد الشفاعة العظمى لمحمد عليه الصلاة والسلام. إن هذا لشيء عجاب وأمر لا يرضاه لنفسه أحد من ذوي العقول والألباب.

مع أن كلامي فيه تصريح واثبات للشفاعة بصورة أبلغ وأعظم مما يعتقدون وبوجه أعم وأشمل مما يقولون. نعم إن في كلامي إنكارا للشفاعة بالمعنى الذي هو في أدمغتهم، والذي قلدوا فيه غيرهم تقليدا أعمى من غير بحث ولا تدقيق، والذي بينا بطلانه بالدلائل العقلية وبصريح الآيات القرآنية وبنص الأحاديث النبوية. وماذا علي إن أنكرت ما أنكره الله تعالى في كتابه المبين ونفاه رسوله الأمين، وأبطله العقل السليم؟! فإن كان هناك لوم فإنما يتوجه على من يهمل البحث والتفكير في نص الحديث والقرآن، ولا يبالي بواضح الحجة وصريح البرهان.

رأي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في الشفاعة مطلقا

وبيان ضعفه

إن الأستاذ الإمام قد قال في تفسيره لهذا الموضوع ما نصه (الشفاعة هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فل أو ترك كان أراد غيره سواء حكم به أم لا. وهذا محال بالنسبة إلى الله تعالى لأن إرادته على حسب علمه وعلمه أزلي لا يتغير، وحينئذ فآيات الشفاعة الواردة في القرآن من المتشابهات، ومذهب السلف يقضي بالتفويض والتسليم، وإنها مزرية يختص بها من يشاء يوم القيامة عبر عنها بلفظ (الشفاعة) ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف في معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي. وأما مذهب الحلف بما فيهم ابن تيمية والوهابية وغيرهم فإنهم أولوا الشفاعة بأنها دعاء يستجيبه الله تعالى. والأحاديث الواردة في الشفاعة تدل على هذا فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم يسجد يوم القيامة ويثني على الله بثناء يلهمه له يومئذ فيقال له (ارفع رأسك واشفع تشفع)، وليس في الشفاعة بهذا المعنى أن الله تعالى يرجع عن إرادة كان أرادها لأجل الشافع وإنما هي إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية عقيب دعاءه، وليس فيها أيضا ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهاونون بأمر الدين ونواهيه اعتمادا على شفاعة الشافعين بل فيه أن الأمر كله لله، وأنه لا ينفع أحد في الآخرة إلا طاعته ورضاه).

انتهى كلام الأستاذ الأمام في تفسيره.

أقول ولكنك قد علمت مما قدمناه لك من التوضيح والبيان المدعم بالدليل والبرهان أن لا حاجة لدعوة أن هذه الآيات من المتشابهات بعد تلك الحجج والبينات، كما أنه لا حاجة أيضا لتأويل الشفاعة بالدعاء إذ أن الدعاء شيء، والشفاعة شيء آخر فلو

كانت الشفاعة دعاء لما نفى الله نفعها وفائدتها، ولما صرح بأنها لا تقبل ولا تطاع ولا تغني شيئا عنده، ولا يملكها أحد دونه كما مر في الآيات المتقدمة، فكيف حينئذ تفسر الشافعة بالدعاء مع أن الدعاء نافع ومقبول عند الله ومملوك للناس ومطلوب في القرآن بنص قوله تعالى (ادعوني استجيب لكم) وعليه فكلام الأستاذ الإمام وإن كان أصلح من غيره إلا أنه ضعيف في ذاته. وتفسير كلام الله بصورة معقولة ومقبولة على نحو ما قدمنا، خير من ادعاء أنه متشابه مشكل غير مفهوم، وخير من تأويله بما لا يتفق مع اللغة والقرآن والعقل.

هذا وإني أرجو الله تعالى أن يدلنا جميعا على الصواب، وأن يجزل لنا الأجر والثواب أنه هو الكريم المعطي الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وعلى سائر الأصحاب.